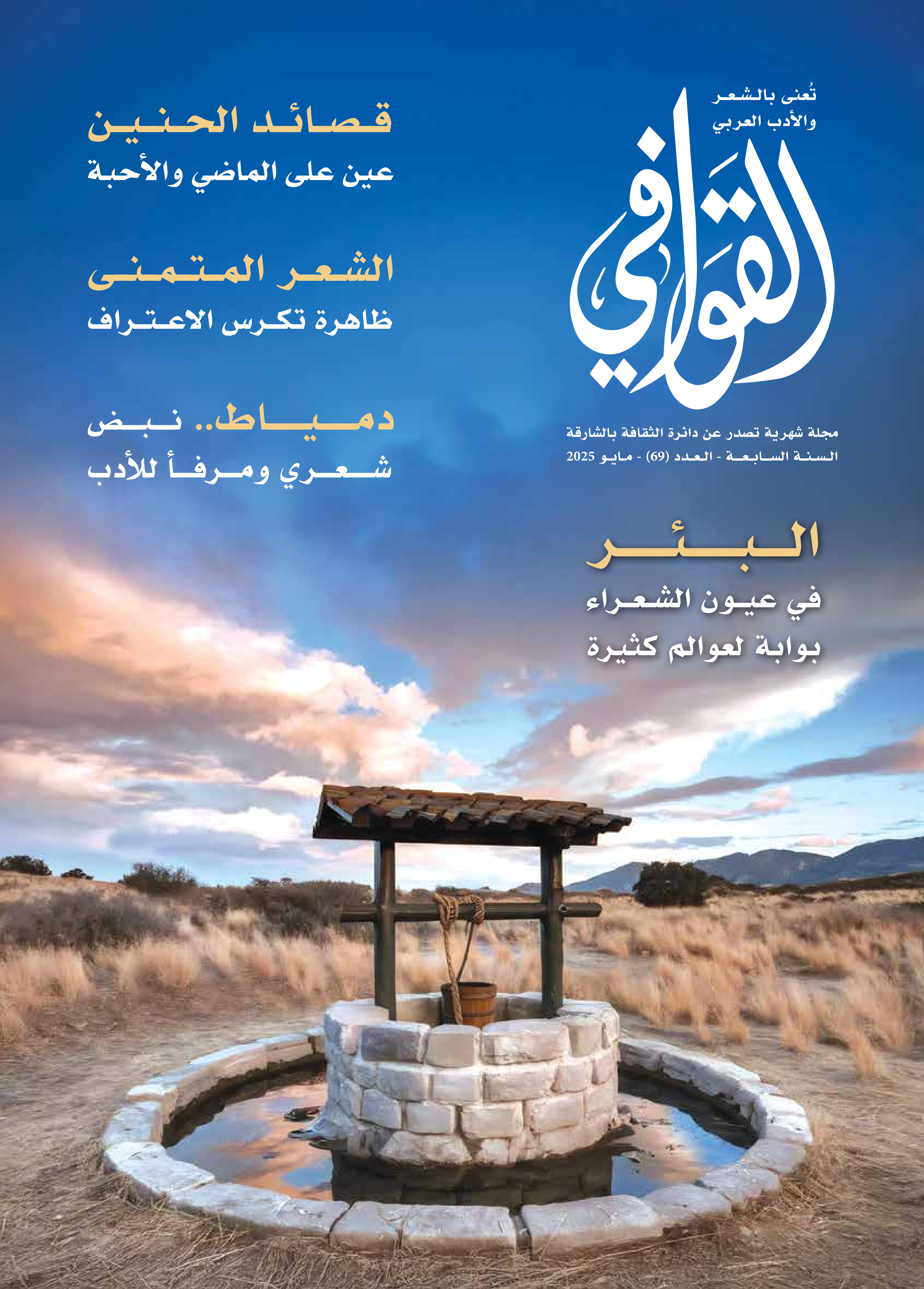


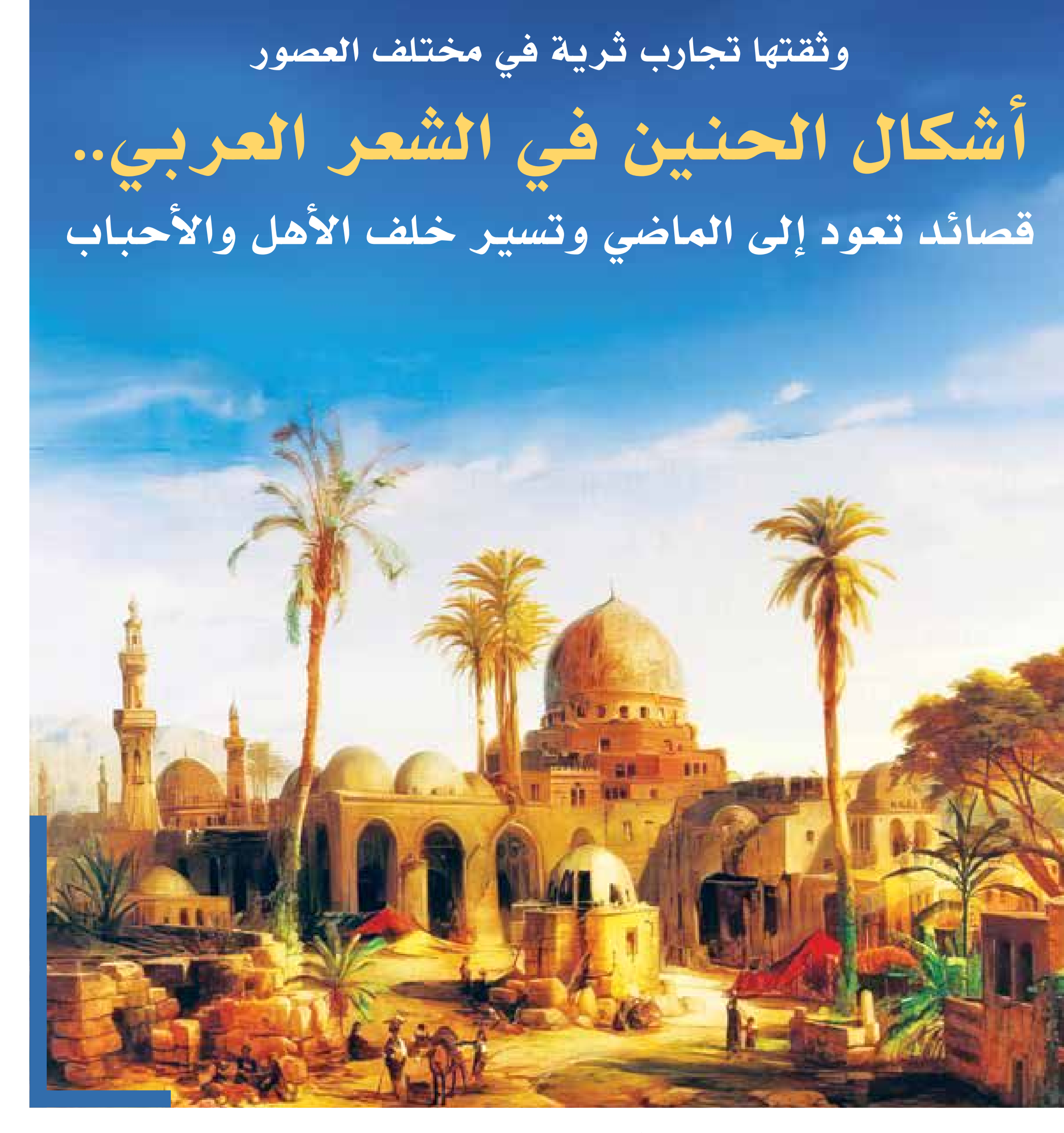
تُعنى بالشعر
والأدب العربي
القوافي
مجلة شهرية تصدر عن دائرة الثقافة بالشارقة
السنة السابعة - العدد (69) - مايو 2025
قصائد الحنين
عين على الماضي والأحبة
الشعر المتمنى
ظاهرة تكرس الاعتراف
دمياط.. نبض
شعري ومرفأ للأدب
البئر
في عيون الشعراء
بوابة لعوالم كثيرة

اطلالة

وثقتها تجارب ثرية في مختلف العصور

أشكال الحنين في الشعر العربي..

قصائد تعود إلى الماضي وتسير خلف الأهل والأحباب



الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، يعيش حالة من التواصل الدائم مع الأهل والأقارب والصحب، ومع الأغراب الذين تتقاطع مسيرته في الحياة معهم، أو تجمعهم المراحل الزمنية بأغراضها المتنوعة. ولأن الحياة تشبه الرحلة يقطعها كل إنسان متنقلاً عبر محطات زمانية ومكانية وفكرية واجتماعية، لذا فإن من الطبيعي أن تتشكل لدى كل منّا ذاكرة مفرداتها البشر والناس والمواقف والأحداث التي ارتبطت بهم على اختلاف المشاعر التي صاحبتها من فرح أو حزن أو اختلاف أو اتفاق.



د. محمود الضبع
مصر



ورحلة الحياة تلك تفرض على الإنسان أن يرحل بعيداً عمّن يألفهم ويألفونه، أو يرحلون هم عنه، سواء بالانتقال المكاني أو الزماني، أو لأسباب أخرى كثيرة تفرضها سنّة الحياة ذاتها، وآخرها بالطبع هو الموت الذي يفرض الرحيل الأبدي بلا أدنى قدرة على المقاومة.

وهنا يجد الإنسان نفسه في حالة حنين دائم، وتذكّر للأيام الخوالي وصحبة الأهل والأحبّة والرفقة والأخلّاء، وهو ما شكل موضوعاً ثرياً من موضوعات الأدب العربي على مرّ العصور.

ولعل أول أشكال الحنين إلى الناس في شعرنا العربي، هو إلى المحبوبة، الذي بدأ مبكراً مع المجتمعات في عصور ما قبل الإسلام (الجاهلية)، وبخاصة أن الحياة في أغلبها آنذاك كانت تقوم على الحِلّ والترحال والتنقّل وراء سبل العيش (المطر والوديان ومواسم الإنبات).

فهذا عمرو بن معد يكرب الزبيدي، يعبر عن ذلك قائلاً:

هاجَ لك الشوْقُ مِنْ رَيْحانَةَ الطَّرَبا
إذْ فارقَتْكَ وأَمْسَتْ دارُها غُرُبا
مازلْتُ أَحْبِسُ يَوْمَ البَيْنِ راحلَتي
حتى استمرُّوا وأَذرَتْ دمعَها سَرَبا

فحنينه إلى محبوبته التي فارقته هيج أشواقه إليها، وذكّره بيوم رحيلها حين كان يراقب متخفياً وقائع هذا الرحيل الذي امتزجت فيه دموع المحبوبين، ولم تنقطع بعد ذلك.

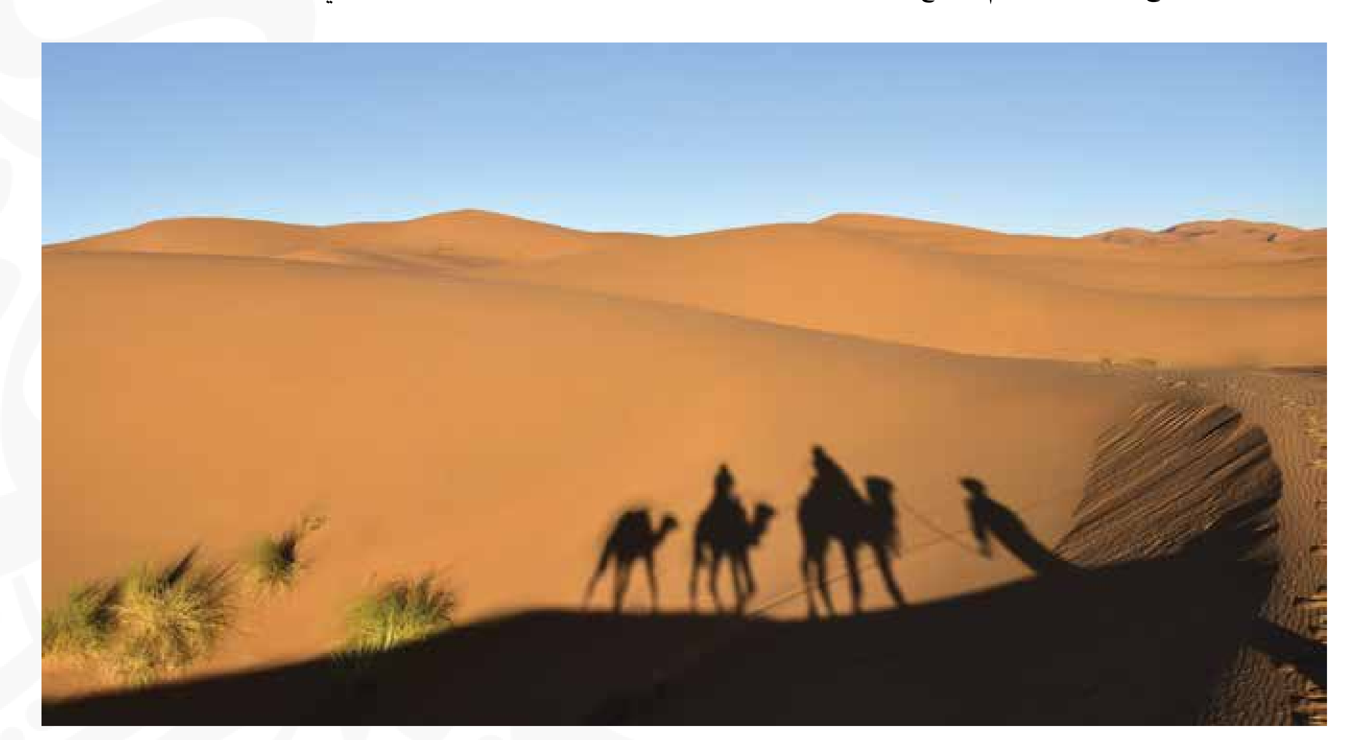
الحنين إلى المحبوب حاضر عند كلّ الشعراء تقريبا

وسنجد هذا المعنى يتكرّر بصيغ متنوعة لدى شعراء العربية من بعد، إذ نلمسه عند عمر بن أبي ربيعة، في معانيه اللطيفة التي لا تخلو من المفارقات، عندما يقول:

أَحِنُّ إذا رَأَيتُ جَمالَ سُعْدى
وأَبْكي إنْ رَأَيْتُ لَها قَرينا
وقَدْ أَفِدَ الرَّحيلُ فَقُلْ لِسُعْدى
لَعَمْرُكِ خَبِّري ما تَأمُرينا
أَلا يا لَيْلُ إنَّ شِفاءَ نَفْسي
نَوالُكِ إنْ بَخِلتِ فَزَوِّدينا

فالمحبوبة سُعْدى، تملك عليه زمام عقله وقلبه، يحنّ إلى ذكراها إذا خطرت على باله، ويغار عليها من أي رفقة أو صحبة إذا رآها. ومن شدة حبه يتمنّى أن يحقق لها كل ما تطلبه، ويتألم لفراقها، ولا تشفى آلامه سوى بالقرب منها والوصل معها.

وعلى المنوال ذاته يعبر قيس بن الملوّح، عن حنينه إلى ليلى العامرية، التي يشتاق إليها وإن طال بينهما الفراق وابتعدت المسافات، بل إنّ لوعة الحنين كلّما زادت، استعذبتها النفس واستمتعت وأتنست باستحضارها في العقل والخاطر؛ يقول:



أَحِـنُّ إلى لَيْلى وإنْ شَطَّت النَّوى
بِلَيْلَى كَمـا حَنَّ اليَـراعُ المُثَقَّـبُ
يقولـونَ لَيْلَى عَذَّبَتْـكَ بِحُبِّهـا
أَلا حَبَّـذا ذاكَ الحَبِيـبُ المُعَـذِّبُ

ويوسع الشريف الرضي - على عهد الدولة الفاطمية - دائرة التعبير عن الحنين إلى المحبوب، ليشمل الصحب والخلّان والأهل والمعارف، حين يعبر عن حنينه للأشخاص ولقياهم قائلاً:

أَحِـنُّ إلـى لِقائِكَ كُلَّ يَوْمٍ
وَأَسْأَلُ عَنْ إيابِكَ كُلَّ وَقْتِ
وأَذْكُرُ ما مَضى فَيَغِيضُ صَبْري
وتَنْفُرُ عَبْرَتي وَيَبُوحُ صَمْتي
ولي قَلْبٌ إذا ذَكَرَ التَّلاقي
تَظَلَّمَ مِنْ يَدِ البَيْنِ المُشَتِّ

فالحنين هنا يغدو جزءاً من عادات الحياة اليومية وتفاصيلها، والأمل في العودة إلى هذا الماضي البعيد يصير مطلباً في كل وقت؛ وعندما تخطر على البال ذكريات الماضي، فإن البصر يضعف والدموع تنسرب والقلب يتألم حنيناً إلى هؤلاء الأحبّة والخلّان.

يشتعل في وجدان امرئ القيس فيتذكر ابنته

والمتتبّع لمدوّنة الشعر العربي القديم إجمالاً، سيجد تجربة الحنين إلى المحبوب حاضرة عند كل الشعراء تقريباً، بوصفها الشكل الأول والصيغة المشتركة بين كل البشر؛ فما من إنسان إلّا أحبّ وابتعد عن المحبوب أو حالت بينهما أحوال الحياة؛ وما من شاعر على وجه الخصوص إلّا أغرق في تجربة الحبّ والحرمان والفراق والابتعاد، ومن ثم تتولد مشاعر الحنين إلى هذا المحبوب.

ويأتي الشكل الثاني، متمثلاً في تجربة الحنين إلى الأهل على اختلاف مراتبهم وتنوعاتهم، وبخاصة الآباء والأمّهات والأبناء والبنات والأزواج والزوجات، والأشقاء والشقيقات والأعمام والعمّات والأخوال والخالات، والأقران من أبناء الأقارب جميعاً.

فهذا امرؤ القيس، بعدما فقد مُلْكه ولجأ إلى مَلِك الروم، فأكرمه واستقرّ به المقام هناك، فإنه على الرغم من كل ذلك، تشتعل في وجدانه أسباب الحنين، فيتذكر ابنته، وتهيج الذكرى في روحه فيتألم قلبه، وينشد:



أَأَذْكَرْتَ نَفْسَكَ ما لَنْ يَعودا
فَهاجَ التَّذَكُّرُ قَلْباً عَمِيدا
تَذَكَّرْتُ هِنْداً وأَتْرابَها
فَأَصْبَحْتُ أَزْمَعْتُ منها صُدُودا

وهذا حكيم العربية أبو الطيّب، يعبّر عن حنينه لجدته الراحلة في قصيدته التي مطلعها «أُغالِبُ فيكَ الشَّوْقَ والشَّوْقُ أغْلَبُ»، وتبدو أنها كانت لها مكانة في نفسه ودور في حياته؛ يقول:

أَحِنُّ إلى الكَأسِ الّتي شَرِبَتْ بها
وأَهْوى لِمَثْواها التُّرابَ وما ضَمّا
بَكَيْتُ عَلَيْها خيفَةً في حَياتِها
وذاقَ كِلانا ثُكْلَ صاحِبِهِ قِدْما
عَرَفْتُ اللَيالي قَبلَ ما صَنَعَت بِنا
فَلَمّا دَهَتْني لَمْ تَزِدْني بِها عِلْما

فهو من شدة حنينه لها يتمنّى أن يتجرّع سريعاً كأس الموت الذي شربته الجدة، ولا يرغب في أن يبقى من بعدها، فقد كان يبكي عليها في حياتها خشية فقدها، لكن ذلك لم يمنع الموت الذي أذاقه وأذاقها مرارة الفقد؛ وهو على الرغم من معرفته بحكمة الليالي في التفريق بين الأحبة، فإن وقع مصيبة موتها كان شديداً عليه.

وقد حدث تحول في شعر الحنين إلى الأهل في مرحلة فجر الإسلام، نتيجة لاتساع حركة الفتوحات وترامي أطراف الدولة الإسلامية، ما زاد تجارب الرحيل والانتقال لأسباب متعددة، يتعلق بعضها بالالتحاق بجيوش الفتح، وبعضها بالأحوال الاجتماعية المتعددة التي اقتضت على أناسٍ الرحيل، سعياً وراء أسباب الرزق، وغيرها من أسباب.

وكل ذلك وغيره من أشكال الحنين إلى الأهل، يمكن أن نلمسه في صور متعددة، منها مثلاً الشعر المعبّر عن شكوى كثير من الأهل للخلفاء، يكشفون عن حنينهم لذويهم وأهاليهم ممن طال بهم البعاد في الحرب، أو ابتعدت بهم الشقة ارتباطاً بشؤون الدولة، ومنه ما صوره المخبّل السعدي، في تجربة حنينه لابنه شيبان، حين رحل لقتال الفرس مع القائد سعد بن أبي وقاص، فلما طال غيابه، قال المخبّل:

أَيُهلِكُني شَيْبانُ في كُلِّ لَيلَةٍ
لِقَلبِيَ مِن خَوفِ الفِراقِ وَجيبُ

أبو الطيّب المتنبي يعبر عن حنينه إلى جدته الراحلة



أَشَيْبانُ ما أَدْراكَ أَن كُلَّ لَيْلَةٍ
غَبَقْتُكَ فيها والغَبُوقُ حَبِيبُ

فهو يحنّ إلى تلك الليالي التي كان يسقي فيها ابنه لبن النوق، ويعيشان لحظات من السعادة والهناء والأجواء الأسرية الليلية.

ويزداد الحنين أنيناً عند كثير من الأهل، عندما يتعرض واحد منهم للأسر في بلاد غريبة، وهو ما تعبّر عنه خولة بنت الأزور، عندما يقع أخوها ضرار في الأسر، فتنشد:

لَقَدْ كانَتِ الأَيّامُ تَزْهُو لِقُرْبِهِمْ
وكُنّا بِهِمْ نَزْهُو وكانُوا كَما كُنّا
أَلا قاتَلَ اللَّهُ النَّوى ما أَمَرَّهُ
وأَفْجَعَهُ ماذا يُرِيدُ النَّوى مِنّا
ذَكَرْتُ لَيالي الجَمْعِ كُنّا سَوِيَّةً
فَفَرَّقَنا رَيْبُ الزَّمانِ وشَتَّتَنا

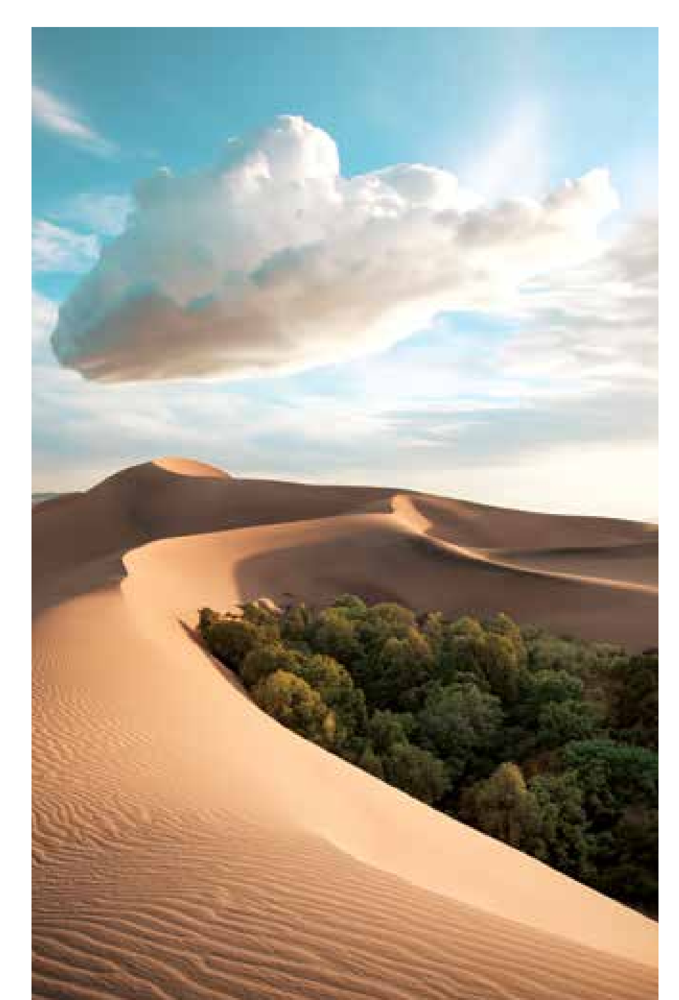
ويأتي الشكل الثالث، متمثلاً في الحنين إلى الخلّان والصحب والرفقة والأقرب إلى النفس والروح؛ يقول القاضي الفاضل، في العصر الأيوبي:

ومِـنْ عَـجَـبٍ أَنّـي أَحِــنُّ إِلَـيـهِـمُ
وأَسـأَلُ عَنهُـمُ مَـنْ أَرى وَهُـم مَعي
وتَطلُبُهُـمُ عَيْني وهُمْ في سَـوادها
ويَشْـتاقُهُم قَلْبي وهُم بَيْـنَ أَضْلُعي

حيث يختلط هنا التعبير عن الحنين للخلّان بالتعبير عن الحنين إلى المحبوب، ويؤدّي المجاز دوره في تعدّد احتمالات التأويل، وإن كان ذلك من سمات شعر هذا العصر في الإجمال.

وهو المسلك ذاته الذي يسلكه صَفيّ الدين الحلّي، في العصر المملوكي، عندما يربط الحنين بعلامات متكررة في الحياة، وآخرها النسيم الذي كلما مرّ هاج به حنينه:

أَحِـنُّ إِلَـيْـكُـم كُـلَّـما ذَرَّ شـارِقٌ
ويَشْـتاقُ قَلْبـي كُلَّمـا مَـرَّ خاطِفُ
وأَهْتَزُّ مِن خَفْقِ النَّسـيمِ إذا سَـرى
ولَوْلاكُـمُ مَـا حَرَّكَتْنـي العَواصِـفُ



حدث تحول في شعر الحنين إلى الأهل في مرحلة فجر الإسلام

وهو ما يعبر عنه في موضع آخر، يقول:

ومِـن عَجَبـي أَنّـي أَحِـنُّ إِلَيكُـمُ
ولَمْ يَخْلُ طَرْفي مِن سَناكُمْ ولا قَلْبي
وأَطلُـبُ قُرْبـاً مِـن حِماكُـم وأَنتُمُ
إِلى ناظِري والقَلبُ في غايَةِ القُرْبِ

ويتكرر المعنى نفسه، عن بهاء الدين زهير، في العصر المملوكي، في مزجه الحنين إلى الرفقة، بالحنين إلى المحبوب، يقول:

أَحِـنُّ إِلَـيـكُـم كُـلَّـما لاحَ بـارِقٌ
وأَسـأَلُ عَنكُـم كُلَّمـا هَبَّـتِ الصَّبا
ومـا زالَ وَجْهـي أَبْيَضاً فـي هَواكُمُ
إِلـى أَنْ سَـرى ذاكَ البَياضُ فَشَـيَّبا
ولَيْـسَ مَشـيباً مـا تَـرَوْنَ بِعارِضي
فَـلا تَمنَعونـي أَنْ أَهيـمَ وأَطْرَبـا

أما الشكل الرابع، فنراه متمثلاً في الحنين إلى الزمان والعهد الماضي، وهو ما نجده كثيراً عند شعراء العصر العباسي، ومنهم سمنون المحبّ، عندما يعبّر عن اشتعال الشوق في القلب ليل نهار، في حنين دائم إلى الزمان الماضي الذي فني وراح:

أَحِـنُّ بِـأَطْـرافِ النَّـهـارِ صَـبابَـةً
وبالليـلِ يدْعونـي الهَـوى فأُجيبُ
وأَيّـامُـنـا تَـفْـنـى وشَـوْقـي زائِـدٌ
كـأَنَّ زَمـانَ الشَّـوْقِ لَـيْـسَ يَغيب

كما نجد قريباً من ذلك عند ابن حمديس الصقلّي، في العصر الأندلسي، حين يجعل الحقبة الزمنية المنصرمة من حياته هي موضع الحنين الذي لو كان في الإمكان تحقّقه، لجاءه حبواً على العين والأنف:

أَحِـنّ إِلـى العِشْـرينَ عامـاً وبَيْنَنا
ثَلاثونَ يَمْشي المَرْءُ فيها إِلى خَلْفِ
ولَـوْ صَـحّ مَشْـيٌ نَحْـوَهُ لابْتَدَرْتُهُ
فجئتُ الصِّبا أحْبو على العَيْنِ والأَنْفِ



الحنين إلى الزمان نجده عند شعراء العصر العباسي

وسيتكرر هذا المعنى عند كثير من الشعراء، ومنهم أبو باكر ناصح الدين الأرجاني، من شعراء الأندلس، عندما يعبّر عن حنينه إلى أوقات الصباح والمساء وما كان فيها من لذة للحياة واستمتاع بصحبة الأهل والأحبة:

أَحِـنُّ إلى تلـكَ الضُّحـى والأصائلِ
ومـا مَـرَّ فـي أَيّـامِـهِـنَّ الـقَـلائـلِ
قَصُـرْنَ وكانَـتْ أَوّلَ العُمْـرِ لَـذَّةً
كما قَصُرَتْ ذَرْعـاً كُعـوبُ العَوامِلِ
لَيـالٍ كجِلْبـابِ الشَّـبابِ لَبِسْـتُها
أُجَـرِّرُ منهـا الذَّيْـلَ تَجْريـرَ رافِلِ

وعلى مستوى آخر سنجد في الشعرية العربية لوناً آخر، وهو إلى الراحلين الذين غيّبهم الموت، وإن كان هذا اللون يختلط كثيراً بفن الرثاء (بكاء الموتى وذكر محاسنهم)، ومنه ما قاله ابن الأبّار البلنسي، من شعراء العصر المملوكي:

أَحِـنُّ لأرْبـابِ المَعـارِفِ بالتُّـرْبِ
وأَرْجو بِهِمِ شَـفْعَ الصَّنيعَـةِ بالرِّبِ

وأخيراً، إذا كان الشعر العربي القديم قد أفاض في التعبير عن الحنين إلى الأهل والأحبّة، فإن أمير الشعراء أحمد شوقي، في القرن العشرين، عبّر عن مثل هذا الحنين وزاد فيه، وبخاصة مع تجربته في النفي إلى بلاد الأندلس، حيث اشتد حنينه إلى الأهل والصحب، فعبر عن ذلك في أكثر من موضع وأكثر من قصيد، ومنه ما يجسد فيه الحنين إلى كل أهل مصر، وليس أهله فقط، حين يقول:

يـا سـاكني مِصـرَ إِنّا لا نَـزالُ على
عَهْـدِ الوَفـاءِ وإِنْ غِبْنـا مُقيمينـا
هَـلّاً بَعَثْـتُـمْ لنـا مِـن مـاءِ نَهْرِكُمُ
شَـيئاً نَبُـلُّ بِـهِ أَحْشـاءَ صادِينـا

وهكذا تنوّعت أبعاد الحنين وأشكاله في الشعر العربي، بين الحنين إلى الأماكن والحنين إلى الأشخاص، والحنين إلى الزمن الماضي، والذكريات والأحداث والوقائع، وسيتّسع المجال، ما دامت المشاعر الإنسانية باقية.